

علاقة الذئب بالحيوانات

الحيوانات الأليفة

الإبل

إذا كان الذئب بمفرده، لا يقوى على الهجوم على الحمار الوحشي أو البقرة الوحشية، فكيف يستطيع الهجوم على الناقة، وهي كما هو معروف أشد خطراً، وأقوى جسماً، إن النظر فيما ذكر عن محاولة الذئب الهجوم على النياق، لا يدل على هذا الهجوم، وإنما يدل على أن الإنسان نفسه كان في حالة خوف من الذئب، فما أن رأى اقترابه منه، حتى سارع بالهجوم عليه، لظنه أن سوف يفترس الناقة، وهذا واضح من قول الأعرابي الذي قتل الذئب:

قلائصُ أصحابي وغيري ولم أكنُ إذا ما كبا الرعيد ذا كبوات^(١)

وكذلك في أبيات الكميت التي تهدد فيها الذئب^(٢).

ولكن الأمر مختلف في قصة ذي الخرق الطهوي، فهو قد بين أن الذئب لم يُقدم على الهجوم على ناقته، بل عوى منادياً صاحبه ليجتمعا، فيحتالا على الهجوم على الناقة، وربما كان أكثر من ذئب سيأتي، وهو الوضع الطبيعي في مثل هذه الحالات، يقول:

(١) الحموي، معجم البلدان، "دائرة واسط". كبا: سقط.

(٢) الأسدي، شعر الكميت، ج ٣، ص ٣٤.

ألم تُعْجَبَ لِدُئِبِ بات يَعوي يُؤْذَنُ صاحباً له بِاللِّحَاقِ
حَسِبْتَ بُغَامَ راحلتي عَنَاقاً وما هي ويب غيرك بالعناق^(١)
ويقول أحدهم:

أذئبُ القفر أم ذئب أنيس سطا بالبكر أم صرْفُ الليالي^(٢)
وعلى هذا، تكون الصورة التي قَدَّمها الصِّمَّة بن عبدالله القشيري، صورة للذئبة
تهاجم الحُوار الصغير، فتمزقه تمزيقاً من ناقة فتية قليلة التجربة "بكر"، حيث يقول:
ولا وجد بكر حرّة أرحبِيّة تروُدُ حوَالِي طفْلِها قد أتمّت^(٣)
أُتِيحَ لها فيما تروح وتغتدي خشارم منه رعبها فاشمَعَلَّتْ^(٤)
وجاءت مفاجأة ترى فَرثَ طفْلِها بِسِرْحَانَةٍ أظفارها قد تَدَمَّتْ^(٥)
تَهْزُ من الوجد الخصيلَ وراعها صُوَيْتُ خَفِيٍّ خلفها فاقشَعَرَّتْ^(٦)
فما وَجَدت من طفْلِها غير شِلْوِه شماطيط لم تقنع بها حيث شَمَّتْ^(٧)
فظَلَّتْ تُراعي (شيلوها) مُسْتَحِجَّةٌ إذا سَلَيْتِ رَجَعَ الحنين استَهَلَّتْ^(٨)

(١) ثعلب، مجالس ثعلب، ج ١، ص ١٥٤، وانظر ص ٦١. البغام: صوت الإبل. العناق: الأثى من المعز.

(٢) الحطينة، ديوان الحطينة، ص ٣٩٥. البكر: الفتية من الإبل.

(٣) أرحبية: إبل منسوبة إلى أرحب: قبيلة من همدان.

(٤) الخشارم: الأصوات.

(٥) الفرث: ما في الكرش. السرحانة: الذئبة.

(٦) الخصيل: شعر الذئب.

(٧) الشماطيط: القطع المتفرقة.

(٨) عبدالعزيز محمد الفيصل، شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي

وشركاه، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ج ٢، ص ٧٧. الشلو: البقية الباقية من الفريسة.

كما يذكر لنا أحد بني عقيل حقيقة الذئب مع الإبل، فهو يهاجم صغارها "الفصلان" التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، يقول على لسان الذئب:

لِي الصَّغِيرُ مِنَ الْفِصْلَانِ أَكَلَهُ ^(١)

ويذكر الأخطل أن الذئب تأتي، لتأكل أجنة النياق الحوامل التي تطرحها في

الطريق، فيقول:

تَرَى الْعَرْمِيسَ الْوَجْنَءَ يَضْرِبُ حَاذَهَا ضَيْلٌ كَفَرُوجِ الدَّجَاةِ مِعْجَلٌ ^(٢)

يَشُقُّ سَمَاحِيقَ السَّلَا عَنْ جَنِينِهَا أَخُو قَفْرَةَ بَادِي السَّغَابَةِ أَطْحَلٌ ^(٣)

ويذكر الطرماع الوضع نفسه، فيقول:

عَلَى حَوْلَاءَ يَطْفُو السُّخْدُ فِيهَا فَرَاهَا الشَّيْذِمَانِ عَنِ الْجَنِينِ ^(٤)

وهكذا، يقول أبو النجم، يذكر جنينا ألقته ناقته:

يَشُقُّ عَنْهُ كَفْنَا لَمْ يَخْلُقِ عَارِي الشَّوَى مِثْلَ الدُّخَانِ الْأُورَقِ ^(٥)

ومع أن الذئب لا يقدر على الناقة المطلقة - فإنه كما تبين لنا - يتعقب

المسافرين والمحاربين على ظهور إبلهم، لعله يظفر بناقة منهكة، أو جنين ساقط، أو

- (١) القزويني، آثار البلاد، ص ١٠٦. الفصلان: جمع فصل، وهو الصغير الذي فصل عن الرضاعة.
- (٢) العرميس: الناقة الصلبة، الوجناء: الغليظة الشديدة. حاذها: ما عن يمين ذنبها أو شمالها.
- (٣) الأخطل، شعر الأخطل، ج ١، ص ٣٤. السماحيق: جمع سمحاق، وهو ما خرج على الوليد من السلا. السلا: غشاوة رقيقة. أخو قفرة: الذئب. السغابة: الجوع.
- (٤) ابن حكيم، ديوان الطرماع، ص ٢٩٣. وانظر، ابن قتيبة: المعاني الكبير، ج ١، ص ٢٠٤، الحولاء: الجلدة التي تخرج مع الولد من بطن الناقة. يطفو: يرتفع. السخد: الماء الأصفر الذي يكون في الحولاء. فراها: قطعها وشقها. الشيدمان: الذئب.
- (٥) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج ١، ص ١٨٩. كفناً: يعني السلا. عاري الشوى: ذئب لا لحم على قوائمه. مثل الدخان الأورق: في لونه ميل إلى السواد.

لعله يجد عند أحد أولئك بعض زاده، فيتبعه في طريقه، يصاحبه، إلا أن هذا غير ما قاله بشر بن أبي خازم:

حتى يَجْرُ الجازران جَينَها والحَدُّ منها بالتَّجِيع مُضْرَجُ
فَيُصِيبُ مَنْحَرَهَا بِأَغْبَرٍ مُجْمَلٍ ذئب يُنازِعُهُ الغُرابُ الأعرَجُ^(١)
إذ هي منحورة هنا.

وقد ذكرت العرب حالة مدهشة حقاً، إن صحت، فهي ترىنا ذكاء الذئب وحيلته، وقدرته على التكيف مع ظروفه الصحراوية القاسية، فهم يقولون:
إن أصل التقريد: وهو أن يُمسح البعير، ويُرفق به، وينزع صاحبه القراد منه هو: أن الذئب يأتي البعير، وهو بارك، فيحك أصل ذنبه، كأنه ينزع القراد منه، فيستلذ ذلك البعير، ثم يدنو إلى جنبه، فيفعل كذلك، فإذا التفت البعير، التحس عينه بلسانه، فقلعها. وفي هذا يقول أحد الرجاج:

ومن طويـل الخطـم ذي أهـمـطـاط^(٢)
ذي ذئبٍ أجـردٍ كالمسـواط^(٣)
يمتـلخ العينيـن بانتـشـطـاط
وفـرؤة الرأس عن المـلطـاط^(٤)

(١) بشر بن أبي خازم، ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزة حسن (دمشق: مطبعة محمد هاشم الكتبي، ط ٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ص ٢٩٠. وتروى لغيره. النجيع: الدم المتخثر. مضرج: ملطخ بالدم.

(٢) الاهتمام: ركوب الشيء والإقدام عليه.

(٣) المسواط: الشيء الذي يسوط به القدر. الملطاط: عظم الرأس.

(٤) الحطيطية، ديون الحطيطية، ص ٦٥. والقراد: دويبة تلصق في جلود الإبل، فتؤذيها، فلا ترتاح حتى

وتجدر الإشارة، فيما يخص الحديث عن الذئب والإبل، إلى ذلك النوع المعروف عندهم بـ"العنزة"، والتي ذكرناها في أول هذا الكتاب، فقد قيل إنه:

"يدنو من الناقة وهي باركة، ثم يثب، فيدخل في حياثها، فيندمص فيه حتى يصل إلى الرحم، فيجتبزاها، فتسقط الناقة، وتموت"^(١).

قال الأزهري: "ورأيت بالصَّمان ناقة مُخرت من قِبَل ذئبها ليلاً، فأصبحت وهي ممخورة، قد أكلت العنزة من عجزها طائفة، فقال راعي الإبل، وكان ثميرياً فصيحاً: طرقتها العنزة، فمخرتها، والمخر: الشق"^(٢).

وجاء في أمثالهم:

رَكِبْتَ عَنزاً يَجِدُجُ جَمَلاً^(٣)

ولقد بلغ من خوف العرب على إبلهم من هجوم الذئب، أنهم كانوا في فترات الجذب، التي تدفع الذئب فيها نفسها إلى المجازفة والمخاطرة، يضعون سياجاً من الإبل الميتة حول الإبل التي ما تزال حية، خوفاً عليها من عدوان الذئب. يقول الفرزدق:

بِحَيْثُ رَأَيْتُ الذَّئْبَ كُلَّ عَشِيَةٍ يَرُوحُ عَلَى مَهْزُولِكُمْ وَيُبَاكِرُهُ
لِيَجْتَرَّ مِنْكُمْ إِنْ رَأَى بَارِزاً لَهُ مِنَ الْجَيْفِ اللَّائِي عَلَيْكُمْ حَظَائِرَهُ^(٤)

بقي أن نشير إلى ظاهرة غريبة في تعاملهم مع الذئب، ذلك أنهم - على الرغم من خوفهم على نياقهم منها، وعلى الرغم من أنها تأكل الأجنة الساقطة من أمهاتها - كانوا يلبسون لباساً يشبه الذئب، وهو أن يستخفي أحدهم للناقة إذا أظارتها على غير ولدها، فتكون أرام لها عليه^(٥).

(١) ابن منظور، اللسان، "عنزة".

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج ١، ص ٢٤٩.

(٥) الزبيدي، التاج، "هول".

وإذا كانت الناقة مخاضاً مقيدة، أو وحيدة، فإنه من الممكن أن يعدو الذئب على ولدها:

"قال رجل، وقد نتج ناقته، لما مخضت، بتُ أصاديها طول ليلي، وذلك أنه كره أن يعقلها، فيُعنتها، أو يتركها، فتندُّ في الأرض، فيأكل الذئب ولدها"^(١).
وإذا كانت الدراسات المعاصرة تثبت أن الذئب تأكل الجيف في وقت المجاعة والاضطرار^(٢)، فإن الأدب العربي يحدثنا أنها تقبل على أكل الإبل الميتة تَوّاً، فمن ذلك قول أحد الرجاز:

تَرى رَذايا الكُومِ فوق الخال
عيداً لكل شيهَم طمـلال^(٣)

وهذا أيضاً ما يقوله ذو الرمة الذي ذكر أن الإبل التي تنقطع ميتة في الطريق تقبل عليها الذئب، لتأكلها:

تعاوى ليحسرها الذئبُ كماعوتٍ من الليل في رَفْضِ العَواشي فصالها^(٤)
أما الفرزدق، فيقول:

وَرَحَلْ حملنا فوق رَحْلٍ وناقيةٍ تركنا يعطشى لا يُزجى حسيها
تركنا عليها الذئب^(٥)

(١) ابن منظور، اللسان، "صدي".

(٢) انظر، س. ط. نباهة الحيوان، ص ٢٥٧.

(٣) ابن منظور، اللسان، "سرح". رذايا: جمع رذية، وهيا لناقاة المهزولة من السير، والمتركة التي حسرها السفر لا تقدر أن تلحق بالركاب. شيهم: الشيهم في الأصل: ما عظم شوكة من ذكور القنافظ، ولعل الشاعر استعاره للذئب. طملال: الذئب الأطلس الخفي الشخصي.

(٤) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج ١، ص ٥١٦-٥١٧. الرفض: ما انتشر من العواشي، وهي الإبل التي تعشى بالليل.

(٥) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج ١، ص ٣٤. يزجي: يدفع. حسيها: الناقاة الحسير: التي أعيت وكلت وتعبت، فسقطت.

وفي هذا يقول بشر بن المعتمر في أرجوزته :

وَلَطَمَةُ الذئبِ عَلَى حَسْوِهِ

أي: أن الذئب يأتي الجمل الميت، فيفضي إليه، وهو يغمغم، فيعتمد على حجاج عينه، فيلحس عينه بلسانه حسيماً، فكأنما قُورَّت عينه تقويراً، لما أُعطي من قوة الردة^(١).

ويضاف إلى كل ذلك تلك الصورة التي تجعل سبب إسراع الناقة في سيرها أنها تشعر بأن ذئباً حذاءها، فهي تخاف أن ينهشها، يقول سويد بن كراع:

كَأَنَّ خِيَالَ الذئبِ تَحْتَ دُفُوفِهَا إِذَا مَا غَدَتْ فُتْلًا مَرَاْفِقُهَا دُفَقًا^(٢)

وقال عمار بن صفوان:

وَتَصْبِحُ عَنِ غَيْبِ السُّرَى وَكَأَنَّهَا تَرَى الذئبَ مِنْهَا بَيْنَ دَفٍّ وَمِرْفَقٍ^(٣)

ولعل من هذا قول ذي الرمة:

وَرِجْلٌ كَظَلِّ الذئبِ أَلْحَقَ سَدْوَهَا وَظَيْفٌ أَمَرَّتْهُ عَصَا السَّاقِ أَرْوَحَ

فشبه رجل الناقة برجل الذئب في سرعته^(٤).

(١) الجاحظ، الحيوان، ج٦، ص٤٣٦. الردة: ردة لسانه.

(٢) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج١، ص١٨٧، وانظر، الضامن، شعراء مقلون، ص٦٣. دفوفها: جنبها. الفتل: أن يفتق المرفق عن الإبط، فلا يحزه. دفقاً: متدفقة بالعدو.

(٣) أبو الحسن، علي بن سليمان بن الفضل، الأخفش الأصغر، كتاب الاختيارين، تحقيق: فخر الدين قباوة (دمشق: مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ص١٧٦.

(٤) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج٢، ص١٢١٩. الوظيف: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق. السدو: الخطو. أمرته عصا الساق: فتلته عظم الساق. الروح: اتساع في الرجلين، وميل إلى الخارج.

الأغنام

إذا كان الشعراء قد ذكروا علاقة الذئب بالبقرة الوحشي أو الحُمُر الوحشية أو الظباء، فقد كان ذلك في معرض تشبيههم للناقة بتلك الحيوانات التي أكلت الذئب أبناءها في أثناء سفرهم، كما في تشبيه ابن أحمَر ناقتَه بالبقرة الوحشية التي أكل ولدها الذئب^(١)، وتشبيه عدي بن الرقاع ناقتَه بالأتان التي أكلت ولدها السباع^(٢)، وتشبيه الأعشى ناقتَه بالظبية التي أكلت السباع (الذئب) ولدها^(٣). ولم يكن الهدف أساساً البقرة أو الظبية. أما علاقة الذئب بالغنم، فهي علاقة أبدية شرطية، فما إن يتبادر إلى ذهن الذئب، حتى ينتقل بشكل تلقائي إلى الغنم، حتى ضُربت في ذلك الأمثال، وجاء القصص الكثير الكثير عنها. ويرجع بعض العلماء عداوة الإنسان للذئب إلى تناقص الغذاء في العصور الأولى، ثم ابتداء نزعة الملكية الفردية في التنامي عند الإنسان، وكانت من ممتلكاته الأولى الماشية^(٤).

ولقد حفل الشعر العربي بقصائد شعرية، وإشارات عديدة إلى العلاقة التناقضية بين الذئب والغنم، فهي علاقة حميمة: بمعنى الارتباط الشديد بالغنم من ناحية الذئب، أي: حب الذئب افتراس الأغنام، وهي علاقة ذميمة، من ناحية علاقة الغنم بالذئب، أي: نفور الأغنام وخوفها البالغ.

(١) الباهلي، شعر عمرو بن أحمَر، ص ص ٩٧-١٠١.

(٢) عدي بن الرقاع العاملي، شعر عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق: نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ١٨٠. وانظر، عمير بن شبيب القطامي، ديوان القطامي، تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب (بيروت: دار الثقافة، ط ١، ١٩٦٠م) ص ١١٩.

(٣) الأعشى، ديوان الأعشى، ص ص ٢٠٩-٢١١.

(٤) John C., Mccloughlin, The Canine p. 27, Hall & Sharp. Wolf and Man, pp. 154-156. Kingdon,

وحيث إن مدلول الأغانم ينصرف إلى الماعز، فإن المفهوم العام له في الشعر العربي يعني الخراف، ويشمل ذلك أيضاً الماعز، فقول الراجز مثلاً:

والشاة لا تُمشي على الهمْلَع^(١) أي: لا تُنسيل مع الذئب.

يعني به النعجة أو الخروف. ودلالة هذا ما جاء عن الشمردل اليربوعي:

"كان ذئبٌ قد لازم مرعى غنم للشمردل، فلا يزال يفرس منها الشاة بعد الشاة، فرصده ليلة حتى جاء لعادته، ثم رماه بسهم، فقتله وقال فيه:

هل خُبِرَ السُّرْحانُ إذِ يستخبرُ عني وقد نام الصحاب السُّمرُ
 لما رأيت الضانَّ منه تُنفرُ نَهَضْتُ وَسَنانَ وطار المئزرُ
 وراعَ منها مَرِحُ مُسْتِهَر^(٢) كأنه إعصار ريح أغبر
 فلم أزل أطرده ويعكُر^(٣) حتى إذا استيقنْتُ ألا أعذر
 وأن عَقْرَى غَمِي سَتَكُثُر^(٤) طار بكفي وفؤادي أوَجِر
 ثُمَّتْ أهْوَيْتُ له لا أُرَجِرُ سَهْمًا فوَلَّى عنه وهو يعثر
 وبت ليلي آمناً أكْبِر^(٥)

وهذا المعنى واضح في قول أبي عيينة المهلبي:

ولأوذيتك فوق ما أذيتني ولأوسيدنَّ على نعاكك ذيبي^(٦)

(١) الخطيئة، ديوان الخطيئة، ص ١٠٤. تمشي: يقال: مشى المال، إذا أنسل وكثر..

(٢) المستيهر: الذاهب العقل.

(٣) يعكُر: يكر وينصرف.

(٤) العقري: الجرحى. الأوجر: الخائف.

(٥) القيسي، شعراء أمويون، ج ٢، ص ٥٥٧.

(٦) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٢٨٨. ويريد بـ"النعاك" هنا: بنيه.

ومن ثم، تنكشف العلاقة صريحة بين الذئب والغنم، كما في قول امرئ القيس:

كَمَا دَعَرَ السَّرْحَانَ جَنَّبَ الرَّيْضِ^(١)

ويقول الشنفرى:

تَعْسِلُ تَحْتِي عَسَلَانًا كَمَا يَعْسِلُ نَحْوَ الْغَنَمِ الذَّيْبُ^(٢)

ويقول ابن مقبل:

حَتَّى تَشُولَ لِقَاحًا بَعْدَ قَارِحِهَا تَحَرَّبُوهَا، كَحَرْبِ الذَّيْبِ لِلْغَنَمِ^(٣)

وقال عروة بن أذينة:

كَرْوَعَةَ ثَلَاثَةِ لِمُغَارِ ذَيْبٍ فَلَمَّا غَابَ عَادَتِ رَاتِعَاتُ^(٤)

وقال ابن الرقيات في مصعب بن الزبير:

لَوْ تُفْقِي وَتَتْرَكَ النَّاسَ كَانُوا غَنَمَ الذَّيْبِ غَابَ عَنْهَا الرَّعَاءُ^(٥)

وفي صورة لافطة يقول الغاضري:

وَهَاجِرَةٌ يَقِيلُ الذَّيْبُ فِيهَا عَنِ الْغَنَمِ الرَّتَاعِ وَهُوَ يَرَاهَا

يُلَوِّي رَأْسَهُ أَسْفَاً عَلَيْهَا وَلَوْلَا حَرُّ سَاعَتِهِ أَتَاهَا^(٦)

(١) ابن حجر، ديوان امرئ القيس، ص ٧٦. الريض: الغنم.

(٢) الشنفرى، شعر الشنفرى، ص ٧٥. تعسل: عسلان الذئب، نوع من العدو فيه اضطراب.

(٣) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص ٤٠٠.

(٤) عروة بن أذينة، شعر عروة بن أذينة، تحقيق: يحيى الجبوري (مطابع التعاونية اللبنانية،

١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ج ٣، ص ٣١٠. التلة: القطعة من الغنم. المغار: مصدر ميمي من أغار.

(٥) المبرد، الكامل، ج ٣، ص ٢٠٦.

(٦) أبو علي، هارون بن زكريا الهجري، التعليقات والنوادر، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: شركة

العبيكان، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) ج ٣، ص ١٣٥٣.

وفي أبيات عمرو ذي الكلب نرى كيف أن الذئب: "أويس"، انقضَّ على الأغنام انقضاؤا السهم، فاخطف منها إحدى سميناتها، ولم يقتصر ذلك على بيان الاختطاف فحسب، بل أشاع الذعر والفرع فيها، كما عبر عن ذلك قائلاً:

يا لبت شعري عنك والأمر عم^(١)
 هل جاء كعب عنك من بين النسم^(٢)
 ما صنع اليوم أويس في الغنم
 صب لها في الریح مریح^(٣) أشم^(٤)
 فاعتام منها لجة غير قزم^(٥)
 حاشكة الدرّة ورهاء الرخم^(٦)
 فجئت لا يشتد شدي ذو قدم
 وفي الشمال سمحة من النشم^(٧)
 صفراء من أقواس شيبان القدم^(٧)

(١) عمم: عام.

(٢) النسم: الناس.

(٣) مریح: من المرح، ولعله مریح، كما في اللسان.

(٤) اعتام: اختار. لجة: هي التي أتت عليها أربعة أشهر من ولادها، فخف لبنها.

القزم: اللثيم من كل شيء.

(٥) حاشكة: حافل. ورهاء: مجنونة. الرخم: المحبة. يقول: هي حاشكة الدرّة وقد ولى لبنها. ورهاء

الرخم: ترام ولدها وتحمه.

(٦) سمحة: قوس سهلة ليست بكزة. النشم: شجر.

(٧) شيبان: رجل كان يعمل القسي. القدم: العتق، صفة للقسي.

تَعَجُّ فِي الكَفِّ إِذَا الرَامِي اعْتَزَم^(١)
 تَرْتُمَ الشَّارِفِ فِي أُخْرَى النُّعْمِ^(٢)
 قَلَّتْ خَذَهَا لَا شَوَى وَلَا شَرَمِ^(٣)
 قَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ فَتَيْتُ القِسْمِ
 لئن نَأَيْتُ أَوْ رَمَيْتُ مِنْ أَمَمِ^(٤)
 لِأَخْضِبَنَّ بَعْضَكَ مِنْ بَعْضِ بِلْدَمِ^(٥)

وقال أعرابي آخر:

أودى بوردة أم الورد ذو عَسَلٍ من الذئب إذا ما راح أو بكرا^(٦)
 لولا ابنها وسليلا لها غُرَّرَ ما انفكت العين تذري دمعها دُرَّرا
 كأنما الذئب إذ يعدو على غنمي في الصبح طالبٌ وثرٍ كان فأتأرا^(٧)
 اعتمها اعتماه شئنٌ برائنه من الضواري اللواتي تقصم القصرا^(٨)

(١) تعج: تصوت. اعتزم: اعتمد.

(٢) ترتم: تحسن. الشارف: الناقة المسنة. النعم: الإبل.

(٣) خذها: خذ الرمية. الشوى: الذي يتعدى المقتل. الشرم: شق الجلد من عرض.

(٤) من أمم: من قصد.

(٥) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ٥٧٥-٥٧٧. وانظر

، ابن منظور، اللسان، "مرح".

(٦) وردة: اسم الشاة، وكنيتها: أم الورد.

(٧) اتأر: أدرك ثأره.

(٨) الجاحظ، الحيوان، ج ٢، ص ٢٠٣. اعتماه، اختاره. شئن: غليظ. البرائن: الأصابع، وعنى بها

الأنياب. تقصم: تقطع: القصر: الرقاب، جمع قَصْرَة.

ونجد في أقوالهم تأييداً لهذا، يكشف عن الأثر الذي يتركه الذئب في الأغنام وأصحابها، فهم يقولون:

أفرس الراعي: غفل، فأخذ الذئب شاةً من غنمه^(١).

أنشع، أو أنشل الذئب في الغنم: أغار فيها^(٢).

الذئب يحوس الغنم: يتخللها ويفرقها^(٣).

ولأن الغنم تضعف أمام الذئب، حتى إنها تستسلم لرؤيته، وتسلم نفسها دون حركة له، قالوا:

"سَبَعَتِ الذئاب الغنم، أي: فرستها، فأكلتها"^(٤).

ومن طريف ملاحظاتهم أن الحيوان المفترس، كالأسد، والذئب، إذا عض شاة، ثم طرد عنها، أو سبقته، أقبلت الأغنام تشم موضع العض، فيفترسها السبع، وهي تشم^(٥).

وقد بلغ من التنافر بين الذئب والأغنام حداً، جعل الأغنام لا تقرب من رائحة الذئب، قال أحدهم:

وَتَكَرَّهُ بَنَّةَ الْغَنَمِ الذئاب^(٦)

وهو معنى مقلوب، يُقصد منه أن الغنم هي التي تكره رائحة الذئب، أما الذئب، فأحب شيء إليها هو رائحة الأغنام، فالذئب لا تكره بنَّة الغنم أبداً.

(١) ابن منظور، اللسان، "فرس".

(٢) الزبيدي، التاج، "فرس".

(٣) المصدر نفسه، "شنع".

(٤) ابن منظور، اللسان، "سبع".

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج١٧، ص٣١٩.

(٦) ابن منظور، اللسان، "بن".

أما وقت هجوم الذئب عليها، فهو مع الصبح، لأنه يظل يرقب فترة الكلب وكَلالته، لأن الكلب يبات ليلته دائماً يحرسها^(١).

هذا من حيث اعتدائه وافتراسه، أما طريقته في أكل الأغنام، فقدّموا عنها ملاحظاتهم التالية:

"إذا دنا من الغنم يعوي حتى يستمع الكلب عواه، فيقصد تلك الجهة ثم يمتنع إلى جهة غير تلك الجهة، فيكون الكلب بعيداً عنها، ويسلب شاة يأخذ بقفاها، ويضربها بذنبه، وتبقى الشاة تعدو معه، ولا يفعل ذلك إلا قبل طلوع الشمس، ويعلم أن الكلب بعيد عنها، وكذلك الراعي يحرس طول الليل، وفي ذلك الوقت يغلبه النوم، وهو أيضاً الوقت الذي ينام فيه الكلب على ما عُرف من نومه عند هبوب نسيم السَّحَر"^(٢).

"أن الذئب يأخذ السخلة، فيحملها، ويذهب بها زاماً، أي: رافعاً رأسه، حتى قيل: زَمَّها الذئب وازدمها"^(٣).
ومن ملاحظاتهم الطريقة قولهم عن الشاة، إضافة إلى ما سبق:
"إذا أخذها الذئب، عدت معه، حتى لا يكون عليه منها مؤونة، وهو إنما يريد أن يُنَحِّيها عن الراعي والكلب، وإن لم يكن هناك كلب ولا راع، فيرى أن يجري على عادته في التحفظ"^(٤).

على أنهم لاحظوا أن:

(١) الجاحظ، الحيوان، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٢) العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ص ٥٨. وانظر: القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٢٣٤.

(٣) ابن منظور، اللسان، "زَمَم".

(٤) كشاجم، المصايد والمطاردة، ص ٤٤.

"الذئب لا تجتمع على قطع واحد، والذي يُخاف من الذئب السَّلَّة والخَطْفَة"^(١).

وليس ذلك فحسب، بل إنهم ذكروا أفاعيل الذئب في الشاة المفروسة، فقالوا: "الذئب يفرفر الشاة، أي: يمزقها"^(٢).

والذئب يأكل، أول ما يأكل، الأحشاء من الفريسة، ولهذا قالوا: "أفرس الذئب بطن الشاة: إذا شقَّه"^(٣).

ثم هو، كما لاحظ العرب، يعمد إلى عين الشاة، فيبتلعها؛ ولهذا قالوا: "أكل الذئب عين الشاة: إذا شرب ما فيها من المخ والبياض"^(٤).

أو قالوا:

"أكل الذئب من الشاة الحدلقة، أي: العين"^(٥).

أو قالوا:

"التحص الذئب عين الشاة: إذا شرب ما فيها من المخ والبياض"^(٦).

ولكن الذئب تعمد أيضاً إلى التهام لحم الشاة من غير الاقتصار على

الأحشاء، أو العين، ولذلك قالوا:

"أكل الذئب الشاة، فما ترك منها تاموراً، أي: شيئاً"^(٧).

أما حكاياتهم حول هذه العلاقات المتوترة بين النوعين، فمنها ذلك الخبر

(١) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ٣٠٣.

(٢) الزبيدي، التاج، "فرو".

(٣) ابن منظور، اللسان، "فرا".

(٤) الزبيدي، التاج، "لحص".

(٥) ابن منظور، اللسان، "حدلق".

(٦) الزبيدي، التاج، "لحص".

(٧) ابن منظور، اللسان، "تمر".

المشهور عن الأعرابي الذي ربى ذئباً، فلما نشأ الذئب، عدا على بعض غنمه، فافترسها، فقال الأعرابي:

فَرَسْتَ شُوْبَيْتِي وَفَجَعْتَ طِفْلاً
وَنِسَوَاناً وَأَنْتَ لِهَمْ رَيْبِ
نَشَأْتَ مَعَ السُّخَالِ وَأَنْتَ طِفْلٌ
فَمَا أَدْرَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبٌ
إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طَبَاعَ سَوْءٍ
فَلَيْسَ بِمُصْلِحٍ طَبِعاً أَدِيبٌ^(١)

وهذه حكاية رمزية بطلاها الذئب والنعجة، وفحواها هذه العداوة الأبدية بينهما، قدّم لها حمزة الأصبهاني بقوله:

"وهذه الأبيات منقولة من حديث طويل من أحاديث الأعراب".

وَأَنْتَ كَذَبُ السَّوْءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً
لِعُمْرُوسَةَ وَالذَّئْبُ غَرَثَانُ مُرْمِلٌ^(٢)
أَأَنْتَ الَّذِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ سَبَّبْتَنِي
فَقَالَ مَتَى ذَا؟ قَالَ ذَا عَامٍ أَوَّلِ
فَقَالَ وَوُلِدْتَ الْعَامَ بَلْ رُمْتَ ظَلْمَنَا
فَدُونَكَ كُنْتِي لَا هُنَاكَ مَأْكَلٌ^(٣)
ومن أقوالهم التي ما زالت تحتاج إلى تحقيق قولهم: اللَّهُمَّ ذَيْباً وَضَبْعاً^(٤).

أي: اجمعهما في الغنم.

وقال الشاعر:

وكان لها جاران لا يخفيرانها
أبو جعدة العادي وعرفاء جبال
والمعنى: أن أبا جعدة، أي: الذئب، والعرفاء الجبال، أي: الضبع، إذا
اجتمعا في الغنم، منع كل منهما صاحبه^(٥).

(١) العسكري: جمهرة الأمثال، ج ٢، ص ٣٠.

(٢) العمروسة: النعجة. غرثان: جائع.

(٣) الأصبهاني، الدررة الفاخرة، ج ١، ص ٢٩٤ - ٢٩٥. وينسب للمجنون.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٩.

إن تكرار هذا الاستعمال يعني كونه فكراً معيناً ثابتاً، يمكن البناء والقياس عليه، فمثلاً يقول أحدهم:

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبُّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذئبَ والضَّبَّعَا
أي أنه دعا لها بالسلامة؛ لأنهما إذا وقعا في الغنم، اشتغل كل منهما بصاحبه، فتسلم الغنم^(١).

وهذا هو المعنى المتفق مع المطلوب، والمسائر للنمط العام. أما أن نفهم عكس ذلك، كما رجَّح ابن منظور، أي:

"دعا عليهم بأن يقتل الذئب أحياءها، وتأكل الضبع موتها"^(٢).
فهو مناقض للمصلحة الشخصية لصاحب الغنم، كما أنه غير متفق مع عدم اجتماعهما معاً على الفريسة.

وبهذا لا يصح ما رآه قطامش، بناء على ترجيح ابن منظور للرأي الأول من أن:
"العربي إذا غضب على غنمه، دعا عليها بتسليط الذئب والضبع"^(٣).

الكلاب

تبيننا من قَبْلُ أن العرب اعتقدوا أن "الديسم" تولد من اجتماع الذئب والكلبة، وهو أمر لا صحة له، ذلك أن تحديد الجنس المتوالد من هذا الاجتماع علمياً، يقع في جنس الكلاب، وليس في جنس الذئاب، وله طبيعة خاصة شبيهة جداً بطبيعة الكلاب، وإن أخذت شيئاً من طبيعة الذئاب، إذ يغلب عليها النباح

(١) ابن منظور، اللسان، "ضبع".

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عبدالمجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، (دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع

والعواء، لا العويل، وهي تتجمع في شكل جماعات كلبية، أكثر من تجمعها في جماعات ذئبية^(١).

ولقد عرض الجاحظ إلى فكرة تلاقح السبع والكلبة. ومرة أخرى، فإن المقصود بـ"السبع" أو "السباع"، هو "الذئب"، أو "الذئب"، وهو النوع الوحيد الذي يمكن اجتماعه بالكلاب، لائتلاف النوعين في فصيلة واحدة، وهي الفصيلة الكلبية. يقول الجاحظ:

"زعم صاحب المنطق أن أصنافاً أخرى من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة، معروفة مثل الذئب التي تسفد الكلاب في أرض رومية.... قال: وبين الحيوان الذي يسمى باليونانية طاغريس وبين الكلب، تُحدُّث هذه الكلاب الهندية. قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى"^(٢).

ثم يضيف:

"وزعموا أن نتاج الأولى يخرج صعباً، وحشياً، لا يُلقن، ولا يُؤلف"^(٣).

وقد بين الجاحظ بعض هذه الملاحظات في قوله:

"وزعم لي بعضهم، عن رجل من أهل الكوفة من بني تميم، أن الكلبة تعرض لهذا السبع حتى تلقح، ثم تعرض مثله مرارا، حتى يكون جرو البطن الثالث قليل الصعوبة يقبل التلقين، وأنهم يأخذون إناث الكلاب، ويربطونها في تلك البراري، فتجيء هذه السباع، وتسفدها، وليس في الأرض أنثى يجتمع على سفادها، ولا ذكر يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناس المختلفة، أكثر في ذلك من الكلب والكلبة. قال: وإذا ربطوا هذه الكلاب الإناث في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع هائجة، سفدتها".

(١) انظر ما سبق، ص ص ٩-١٣.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ص ١٨٣-١٨٤.

(٣) المصدر نفسه. وانظر عن الكلاب الذئبية: Scott, Painted Wolves

وعلى الرغم من أن الجاحظ قال في جملة من ذلك: "إذا ربطوا هذه الكلاب الإناث... وإن لم يكن السبع هائجاً، فالكلبة مأكولة"^(١).

ومن الثابت علمياً أن الذئب تتغذى على الكلاب^(٢)، ويبدو أن هناك نوعاً من الكلاب المدربة الخاصة، تستطيع مهاجمة الذئب والتغلب عليها؛ ولذلك حددوها بأنها "الكلاب السود" خاصة، حتى قالوا: كخوف الذئب من سود الكلاب^(٣). أو هي البقع، ورؤي: كخوف الذئب من بقع الكلاب^(٤). ذلك أن:

"البقع شر الكلاب، والتبقع هجنة، وسودها أكثر عقوراً، وهي شرها"^(٥). وعلى الرغم من غموض هذا التعريف، فإنه يمكن الاستدلال عليه بما جاء عن بدو سيناء:

"أما كلابهم، فثلاثة أنواع؛ العكّل: لحماية الغنم من الذئب والضباع؛ والسلق... والضري: وهو... جنس مولد من العكّل والسلق.. والبدو يقتنون كلاب الضري، لمنع أذاه". أي: لمنع أذى الذئب^(٦).

(١) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ١٨٤.

(٢) Mech, The Wolf, p.173.

(٣) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج ١، ص ٢٣٩.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ٢٦١.

(٥) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج ١، ص ٢٤٠.

(٦) نعوم بك شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها (بيروت: دار الجيل، ط ١،

١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص ١٠٠.

ولعل الضري هو: الجعري (كما يُسمى في نجد والخليج).

ومن أمثالهم حول الذئب والكلب، قولهم:

"وقع الكلب على الذئب، ليأخذ منه مثل ما أخذ".

يضرب في الانتصار من الظالم^(١).

ومن أشهر أقوالهم قول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتثقي مريض المستأسد الحام^(٢)

الحيوانات البرية

الأرانب

الأرانب من الحيوانات التي يصطادها الذئب بعد مطاردة وشيكة^(٣). وقد نقل

أحدهم صورة ذئب قبض على أرنب، فقال:

والسُعْسُعُ الأطلَسُ في حَلْقِهِ عِكْرِشَةٌ تَنْثِقُ في اللُّهْزَمِ^(٤)

البقر الوحشي

من أقدم الصور التي تشكلت لدينا عن علاقة الذئب بالحيوانات الأخرى

صورة البقرة في أبيات لبليد من معلقته المشهورة، إذ قدم تفصيلاً دقيقاً لهذين الحيوانين

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٣٧٣.

(٢) زياد بن معاوية، النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة:

دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٥م) ص ٨٤.

(٣) Fareley Mowat, Never Cry wolf in great stories of the Animal (Hong king) Toppen Pirikkting co. (٣)

ltd., n.d) p.179.

(٤) الزبيدي، التاج: "سعسع". السعسع: الذئب. العكرشة: الأرنب. تنثق: تصيء. اللهزم: مجتمع اللحم

بين الماضع الذي يكون في أصل الحنك عند منحنى اللحيين، أسفل من الأذنين.

الذين يشتركان في معيشتهما في الخلاء والبعد عن أعين الصيادين. ومن المعروف في الدراسات العلمية الحديثة التي قُدِّمت عن الذئب أنه لا يهاجم بمفرده الحيوانات الكبار: كالأبقار، والإبل، والحمير، وإنما يهاجم أبناءها، عندما يتأكد من ابتعاد أمهاتها عنها. وفي تلك الصورة نرى البقرة سائرة مع القطيع، وهو منظر ركزت عليه الدراسات الحديثة أيضاً، وكانت منشغلة عن ابنها، وهي ترعى مع القطيع نهاراً، وبعد أن قرر القطيع مغادرة المكان، بعد أن اقترب المساء، التفتت نحو ابنها الذي كان يرعى بمحاذاتها، فلم تجده، فراحت تبحث عنه في ذلك المكان، وقد داخلها هاجس الخوف عليه، ولكنها مع ذلك كانت مطمئنة إلى العثور عليه؛ لأنها حين صاحت بصوتها الحزين ذاك (بغامها)، وكانت تأمل أن يجاوبها بصياح مثله، تستدل به على مكانه بين النبات، ولذلك قال:

خنساء ضيَّعتَ الفَريْرَ فلم يَرمُ عُرْضَ الشَّقائِقِ طَوْفُها وبُغامها^(١)
ولكنها أدركت بعد قليل أن الذئب افترسته، فقعدت حزينة بائسة، تُكِنُّها
الخمائل عن الأمطار الغزيرة التي تهطل عليها.
ولم تختلف قصة البقرة عند الأعشى^(٢) عنها عند لييد، إلا أن بقرة الأعشى
لم تكن مع قطع، بل كانت بمفردها مع عجلها، وكذلك كانت بقرة النابغة الجعدي^(٣)
وحيدة مع عجلها. كما قدّم لييد صورة أخرى للبقرة وحيدة في أبياته اللامية^(٤). ومن
الملاحظ أن طبيعة البقر تكاد تكون واحدة، فهي إذ تذهب للرعي، تنهمك فيه،
وتنشغل عنه من غدوتها حتى المساء.

(١) ابن ربيعة، شرح شعر لييد، ص ٣٠٨. خنساء: تأخر أنفها وقصر. الفريير: ولد البقرة. لم يرم: لم يبرح. بغامها: صوتها.

(٢) الأعشى، ديوان الأعشى، ص ١٥٥، وانظر ص ١٣٢.

(٣) الجعدي، شعر النابغة الجعدي، ص ص ٦٢-٦٣.

(٤) ابن ربيعة، شرح ديوان لييد، ص ٢٧٠.

ونجد الصورة نفسها عند ابن مقبل، فهي تجمع بين بقرة لبيد وبقرة الأعشى، فبقرة لبيد كانت مع قطع، فتأخرت عنه بسبب ابنها، وبقرة ابن مقبل كذلك، أخذها عن صواحبها ابنها:

أَوْعَجَّةٌ مِنْ إِرَاحِ الرَّمْلِ أَخَذَلَهَا عَنْ إِيْفِهَا وَاضِحُ الْخَدَّيْنِ مَكْحُولٌ^(١)
 وَأَبْقَارُ لَبِيدٍ كَانَتْ فِي شَقَائِقِ مِنَ الرَّمْلِ، وَالْعِبَارَةُ نَفْسَهَا نُجْدَهَا عِنْدَ ابْنِ مَقْبَلٍ:
 بِشَقَّةٍ مِنْ نَقَا الْعَرَافِ يَسْكُنُهَا جِنَّ الصَّرِيمَةِ وَالْعَيْنِ الْمَطَافِيلِ
 ومع أن لبيداً يختصر القصة، فيجعل الذئب قد أكل الابن، نجد ابن مقبل يوجد نوعاً من الحوار الداخلي عند البقرة، يعيدنا إلى صورة البقرة عند الأعشى في عينيته حيث تعود البقرة، وأنداؤها مليئة بالحليب، فتجد الابن مأكولاً:

حَتَّى إِذَا فَيْقَةٌ فِي ضَرَعِهَا اجْتَمَعَتْ جَاءَتْ لِتَرْضِعَ شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعَا^(٢)
 وابن مقبل يقول: إن إحلليها - أي: مخرج اللبن منها - مليء بالحليب أيضاً:

تَعْتَادُهُ بِفُؤَادٍ غَيْرِ مُقْتَسَمٍ وَدَرَّةٍ لَمْ تَخَوَّنْهَا الْأَحَالِيلُ^(٣)
 ولكن ابن مقبل طوّر الصورة كثيراً، فقد توقف لبيد والأعشى عند قتل العجل، مع اختلاف يسير، كما قال لبيد: "تنازع شلوه..."^(٤)، أما ابن مقبل، فقد

(١) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص ٣٨٤.

(٢) الأعشى، ديوان الأعشى، ص ١٥٥. الفيقة: اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين. شق النفس: أي قطعة من نفسها.

(٣) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص ٣٨٥، تعاده: تلمّ بولدها. فؤاد غير مقتسم: أي لم يقتسم فؤاد البقرة همّ غير ولدها. الدرّة: الحليب. لم تخونها: لم تنقصها، لم تحلب، ولم ينقص لبنها. الأحاليل: جمع إحلليل، وهو مخرج اللبن من الضرع.

(٤) ابن ربيعة، شرح ديوان لبيد، ص ٣٠٨.

بين لنا كيف قتل الذئب العجل الرضيع، ووصف الذئب نفسه، وإذا كان الاثنان قد بينا انصراف البقرة يائسة حزينة، فإن صورة ابن مقبل، إنسانية خالدة للأوممة، حين يصور شدة فجيعتها عندما سمعت ثغاء ابنها، فطار قلبها نحوها، فإذا النبات اللين الناعم، يكاد يمزق أحشاءها، والزبد يطفح على جوانب خديها، ثم هي لا تبالي ما تطأ بالأرض وهي منطلقة نحوها. ثم تبلغ الصورة أقصى روعتها، فيمثلها حينما يشبهها، وهي تقلب ابنها المتمرغ في دماثة، بشأبة فقدت سيوارها، وكانت فرحة به؛ لأنها خضبت يديها، وفجأة تفقد ذلك السوار، فتفقد معه فرحتها به، وهو تمثيل يشير إلى أن العجل كان أول ولد للبقرة، وهي إشارة أخرى إلى أنها كانت بكرًا، فكانت أشد فرحاً بمولودها الأول وأكثر فجيعة به، يقول:

كاد اللعاع من الحوذان يسخطها ورجرج بين لحيها خناطيل^(١)

ويتوافق ابن أحمـر في تقسيمات الصورة مع سابقه، فهذه بقرة أجبرها ولدها على التأخر عن رفيقاتها، وهي تعرف أن هذا الموقع تكثر فيه الذئب، فهي تحوم حوله، ولكنها مثل بقية البقر، شغلها الأكل عن شقيق نفسها، مما مكن الذئب من اقتناصه. وكذلك كانت بقرة النابغة الجعدي وحيدة.

وهذا المناخ الجغرافي هو مناخ الربيع في صحراء الجزيرة العربية، كما هو معروف. ومن المهم أن نلاحظ أن زمن وجود هذه الأبقار كان ربيعاً، لأنه هذا الزمن الذي يتناسب مع زمن ولادة البقر، وهذا واضح في قول ابن أحمـر:

في يوم طل وأشباه وضاوية شهباً وتلج وقطر وقعه درر^(٢)

(١) ابن مقبل، ديوان ابن مقبل، ص ٣٨٧. اللعاع: أول النبات. الحوذان: نوع من النبات. يحطها: يقتلها. الرجرج: اللعاب. الخناطيل: القطع المتفرقة من لعابها.

(٢) يوم طل: ذو طل. أشباه جمع الشبه: شجرة كثيرة الشوك. الضافية: السحابة الكثيفة التي دنت من الأرض، يقال سنة شهباء: إذا كانت كثيرة الثلج مجدبة. الدرر: جمع درة، وهي الصب أو الأمطار التي تتبع بعضها بعضاً.

حتى تنأهى به غَيْثٌ وَلَجٌ بها يَهُوُّ تلاقى به الأرامُ والبقر^(١)
 إن السؤال الذي يدور بخلد قارئ هذه الأشعار هو: لماذا نفهم أن "السبع"،
 الذي يرد في هذه القصائد، دون التصريح بأنه الذئب، وليس سواه؟

وقد تبدو الإجابة مضللة، لو اعتمدنا على الاستنتاج الشخصي، ولكن حين
 نعود إلى قول الشُّرَّاح، فسنجد أنهم يتفقون على أنه الذئب، والذئب وحده، وليس
 هو الأسد، أو الضبع، أو غيرها، كما قد يتبادر إلى الذهن. جاء في اللسان:

"ابن مقبل يصف بقرة أكل السبع ولدها:

كاد اللعاع من الحوذان يسحطها ورجرج بين لحبيها خناطيل
 أي: لما رأَت الذئب أكل ولدها"^(٢).

وفي: موضع آخر قال:

"ابن أحمر يصف بقرة يختلف الذئب إلى ولدها:

تُرَبِّي له فهو مسرور بطلعتها طوراً وطوراً تناساه ففتتكر^(٣)
 ولتأكيد هذا من الشعر الذي يصرِّح أن الذئب هي التي تقتل الصغار،
 نستشهد بقول أحدهم:

كأطوم فقَدتْ بُرْزُغَهَا أعقبتْها الغُبْسُ منه عَدَمًا^(٤)

غفلت ثم أتت تطلبُه فإذا هي بعظامٍ ودمًا^(٥)

(١) الباهلي، شعر ابن أحمر، ص ٩٧. تنأهى به: كانت نهايته سقوط المطر. اليهو: أماكن البقر. لج بها

يهو: اختلط صوتها مع صوت الأرام والبقر في اليهو. الأرام: مع رثم، وهو الظبي الخالص البياض.

(٢) ابن منظور، اللسان، "رجرج".

(٣) المصدر نفسه، "ربا".

(٤) الأطوم: البقرة الوحشية. البرزغ: ولدها. الغبس: الذئب.

(٥) ابن الشجري، الأمالي، ج ٢، ص ٢٢٩.

فهذه صور لا نتيين منها فقد الولد عياناً، ولكننا ندركه ونعيه، سيراً على النمط التصويري عندهم، وهذا ما يقوله زهير صراحة في صورة موسعة لصورة طرفة، وفي القالب نفسه:

تَنجُو كَذَلِكَ أَوْ نَجَاءَ فَرِيدَةٍ ظَلَّتْ تَتَّبِعُ مَرْتَعًا بِالْفَرْقَدِ^(١)
 بَيْنَا تُرَاعِيهِ بِكُلِّ خَمِيلَةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الظُّلُّ ظَاهِرُهَا نَدَى^(٢)
 غَفَلْتُ فَخَالَفَهَا السَّبَاعُ فَلَمْ تَجِدْ إِلَّا الْإِهَابَ تَرَكْنَهُ بِالْمَرْقَدِ^(٣)
 حَتَّى إِذَا مَا انْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَتَلَدَّدَتْ بِالرَّمْلِ أَيَّ تَلَدُّدٍ^(٤)
 وَرَأَيْتُهَا نَكْبَاءً تُحَسَّبُ أَنَّهَا طَلَيْتُ بَقَارٍ أَوْ كُحَيْلٍ مُعْقَدٍ^(٥)
 وَتَيَمَّمْتُ عُرْضَ الْفَلَاةِ كَأَنَّهَا غَرَاءٌ مِنْ قِطْعِ السَّحَابِ الْأَقْهَدِ^(٦)
 وقول الأعشى:

- (١) تنجو : أي ناقته تسرع، كذلك - إشارة إلى تشبيه الحمار قبل هذا. فريدة - بقرة منفردة. بالفرد: أي مع الفرد، والفرد، هو ولد البقرة الوحشية.
- (٢) تراعيه: ترعى معه أو تحفظه. الخميطة: رملة فيها شجر. الطل: الندى. ظاهرها ند: لقلة الماء، لم يبلغ الأصول.
- (٣) خالفه السباع: أي إلى ولدها، فأكلته. الإهاب: الجلد. المرقد: حيث يرقد ولدها.
- (٤) انجباب: المكشف عن البقرة ليلها، أي أصبحت. تلددت: ترددت وتلفتت تطلب ولدها.
- (٥) رأيتها: أي البقرة. نكباء: متنكبة مائلة عن الطريق. القار: هنا الإبل رقيق، وهو يعني سواد خديها وقوائمها. الكحيل: الخضخاض الرقيق يخرج من عين من الأرض مثلما يخرج ال: يعقد بالنار.
- (٦) زهير بن أبي سلمى، شرح شعر زهير بن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة (حلب: دار القلم، ط ٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ص ١٩ ناحية الفلاة. كأنها كأن البقرة غراء: سحابة بيضاء، شبه بياض البقرة الوحشية بياض السحاب. الأقهة: الأبيض، شبه بياض ظهر البقرة بالسحاب؛ لأن البقرة في خديها وقوائمها سواد، وسائرها أبيض.

وَعَيْنٍ وَحَشِيَّةٍ أَغْفَتَ فَارَقَهَا صَوْتُ الذئاب فَأَوْفَتَ نَحْوَهُ دَابًا^(١)

بل إن اللغويين فصلوا بين الذئب والضبع في السبعية، فقالوا:

"السبع المفترس من الحيوان، الأسد، والذئب، والنمر، والفهد، وما أشبهها؛ مما له ناب، ويعدو على الناس والدواب، فيفترسها. أما الثعلب، وإن كان له ناب، فإنه ليس بسبع؛ لأنه لا يعدو إلا على صغار المواشي، ولا يُنِيب في شيء من الحيوانات، وكذلك الضبع، لا يُعدُّ من السَّبَاعِ العَادِيَةِ... وأما ابن آوى، فإنه سبع خبيث، ولحمه حرام؛ لأنه من جنس الذئاب، إلا أنه أصغر جُرمًا، وأضعف بدناً"^(٢). وهناك سبب علمي يدفعنا إلى تأكيد معنى السبع في الذئب لا الضبع، وهو أن الضباع تكون مجتمعة، على عكس الذئاب العربية أو في صحراء العرب التي توجد في أغلب الأحيان منفردة^(٣).

وإضافة إلى هذا، وبما يتوافق مع طبيعة الذئاب في الاختلاس والاختصاص والسطو، فإن الأسد، أو النمر، مثلاً، لن يتحاشى الاصطدام بالبقرة نفسها، كما يفعل الذئب، وإنما ستكون البقرة، وما في حجم البقرة، هي نفسها عرضة لافتراس الأسد أو النمر، وليس الذئب.

وقد تولد عند الأبقار حس حذر من الذئاب، ولذلك يركز الشعراء على إيجاد الأبقار في كِنَاسِهَا، تحت شجرة أرطاة، أو مكان أمين، يقول أحدهم:

أَتَتْ سِدْرَةً مِنْ رَمَلٍ حَوْمَلٍ فَابْتَنَّتْ (لَهَا بَيْتًا فَلَ) تَحَاذِرُ ذِيَا^(٤)

(١) الأعشى، ديوان الأعشى، ص ٤١١. أوفت: أتت نحو الصوت. دابا: مخففة من داب، أي مضت واستمرت.

(٢) ابن منظور، اللسان، "سبع".

(٣) Milles, Kalahari Hyeanas, pp. 93, 99 - 100, 103 - 111.

(٤) الحشاء، المنصوري في البيزة، ص ١٣٠. والشطر الثاني مكسور. ولعل الرواية: "بها بيتها فلا...".

ولو أردنا أن نتوسّع شيئاً ما في الاستنتاج، فقد يساعدنا ما تقدم على فهم الصور الإشارية إلى فقدان البقر أولادها، على أن ذلك الفقد تم على يد الذئب وحده، فمن هذا قول طرفة في ناقته:

طَحُورَانِ عُوَارِ الْقَدَى فَتْرَاهُمَا كَمَكْحُولَتِي مَدْعُورَةٌ أُمُّ فَرَقْدٍ^(١)

فطرفة في صورة إشارية يقول القصة نفسها التي فصل فيها سواء. ونجد هذا أيضاً في قول ابن الدمينية في تشبيه محبوبته:

بِيضَاءُ مِثْلُ مَهَاةِ الرَّمْلِ أَخَذَلَهَا عَنْ الْمَهَا جُوذُرٌ قَدْ رَادَ أَوْ كَرَبَا^(٢)

وفي تفصيل أكثر يقول النمر بن تولب:

وكَأَنَّهَا عَيْنَاءُ أُمِّ جُوَيْذِرٍ خَذَلَتْ لَهُ بِالرَّمْلِ خَلْفَ صُورَاهَا^(٣)

خَرِقٍ إِذَا مَا نَامَ طَافَتْ حَوْلَهُ طُوفَ الْكَعَابِ عَلَى جَنُوبِ دَوَارِهَا^(٤)

على أن الملاحظة المهمة هنا هي التعبير بـ"جوذر"، و"فرقد" و"جويزر" و"برزغ"، و"خرق"، بل بكل وضوح: "جاءت لترضع" و"درة لم تخونها الأحاليل"، فكل ذلك يدل على حداثة الولادة. ثم إن البقر ترعى نهاراً، وهي تضع مولودها في خميلة "بكل خميلة" أو وسط متعرجات الرمال، ويبدو أن الذئب تحتل العجل أول النهار، وهو وقت يمكن أن تخرج فيه، وهو وقت يتناسب أيضاً مع خروج البقر للرعي.

(١) ابن العبد، ديوان طرفة، ص ٢٣. أم فرقد: البقرة الوحشية. طحوران: تطرحان. عوار القدى:

وسخ العين. مدعورة: تشوف النظر إلى ولدها وأخذت النظر إليه إشفاقاً.

(٢) عبدالله بن عبيدالله بن الدمينية، ديوان ابن الدمينية، تحقيق: أحمد راتب النفاح (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م) ص ١٢٢. راد: ذهب وجاء. كرب: كثرت نفرته.

(٣) أم جوذر: البقرة الوحشية.. الصوار: القطع من البقر..

(٤) النمر بن تولب، شعر النمر بن تولب، صنعة نوري حمودي القيس (بغداد: دار المعارف،

١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) ص ٦١.

الحمر الوحشية

فهمنا قبل قليل أن الذئب هي التي تفترس العجول، ولم نشاهد قصة تقتل فيها الذئب البقرة الوحشية، ولعل الأمر يعود إلى أن البقر الوحشي يكون قطعاً باستمرار، وأنها تحذل صواحبها - أي: تتأخر عنها اقترباً من ابنها وشفقة عليه - وسرعان ما تعاود اللحاق بها والانضمام إليها. وغالباً ما يحتمي الثور الوحشي، أو البقرة الوحشية، في الليل، في كناسه تحت أرطاة، أو غرقد، ووسيلة دفاعها هي قرونها.

أما الحمر الوحشية، فهي عادة ما تكون قليلة العدد، ومعروف أنها تسير ليلاً، وترتاح نهاراً، وهي حذرة، يقظة، شديدة الاحتراس، تدافع عن نفسها بحوافرها الصلبة.

ومع كل هذا، فقد اقتصرت أحاديث الشعر الجاهلي على البقر، واستمر ذلك في الإسلام، وهذا واضح على الأقل من شعر ذي الرمة الذي أفاض في علاقة البقر والحمير بالصيد.

غير أنه في أواخر الجاهلية وجدنا العباس بن مرداس يقول في قتلى هوازن: حتى تركنا جمعهم وكأنه عَيْرٌ تَعَاقَبَهُ السَّبَاعُ مُفْرَسٌ^(١) وتمشياً مع صور البقر الوحشي، التي لم تفترس الذئب إحداها، فإن هذا العير (الحمار) قتلته الذئب (السباع)، ولم يظفر به ذئب واحد بمفرده، لعدم قدرته عليها.

وطبقاً لما فهمنا من تعريفهم للسباع، فإن المحتمل هنا أن تكون السباع هي الذئب أيضاً.

(١) أبو محمد، عبد الملك بن هشام، السيرة، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ج ٤، ص ١١١. مفرس: معقور، افترسته السباع.

وعلى العموم، فهذا هو شاهد نادر مقطوع، ولكن الشواهد الأخرى التي تتفق حقيقة مع الشواهد سالفة الذكر عن أكل الذئب للعجول، هي ذكرهم لأكل الجحشان، أي: أولاد الحمير. ومن اللافت للنظر أن هذه الصور كلها إسلامية، وليست من الجاهلية في شيء. وأول ما نصادفه منها، قول القطامي في تشبيه ناقته:

شِبْهُ الْأَتَانِ تَوَحَّشَتْ فِي قَفْرَةٍ يَهْمَاءَ فَاخْتَلَسَ السَّبَاعَ طَلَاهَا (١)

وبعد ذلك نجد عدي بن الرقاع يصف ناقته، ويشبهها بالأتان، قائلاً:

وَعَدَّتْ تُنَازِعُهُ الْجَدِيلَ كَأَنَّهَا بَيْدَانَةٌ أَكَلِ السَّبَاعِ طَلَاهَا (٢)

حتى إذا يئست وأسحق ضرعها ورأت بقية شلوه فشجاها

قلقت وعارضها حصان نحائص صحل الصهيل وأدبرت وتلاها (٣)

يتعاونان من الغبار ملاءة بيضاء محدثة هما نسجاها (٤)

وفي أواخر العصر الأموي نجد الطرماح يأتي بالصورة نفسها، فيقول:

ذَاكَ أُمٌ جِيْدَاءُ بَيْدَانَةٌ غَرَبَةُ الْعَيْنِ جَهَادُ الْمَسَامِ (٥)

(١) القطامي، ديوان القطامي، ص ١١٩. طلاها: ولدها الصغير.

(٢) الجديل: الخزام. بيدانة: أتان تكون في البيداء. أسحق: ذهب ما فيه من اللبن.

(٣) الحصان: أي الحمار الوحشي. النحائص: جمع نحوص، وهي الأتان، لا حمل ولا لبن لها. صحل: أبيض أجش. تلاها: تبعها.

(٤) العاملي، ديوان شعر عدي بن الرقاع، ص ص ١٠٤ - ١٠٥. وهي تسائر النمط في أكل الذئب ولد البقرة الوحشية.

(٥) ذلك: إشارة إلى الثور الوحشي الموصوف سابقاً. الجيداء: الطويلة العنق. البيدانة: التي تسكن البيداء، أي الصحراء. غربة العين: حديدة النظر. الجهاد: الأرض المستوية الغليظة. المسام: الموضع الذي تسوم فيه، أي ترعى.

أَكَلَ السَّبْعُ طَلاها تَسْأَلُ الأَشْباحُ غَيْرَ انْهزام^(١)
ضَمَّها الخوف إلى شُنْعٍ أَبَدَتْ الأَضْغانُ بَعْدَ الكِتام^(٢)

على أنه مما يدل على أن الذئب تأكل الحمير، هو اشتهاً أحد الأمكنة بذلك، ففي "ذغنان": في طرف "النير"، ذئب تأكل الحمير^(٣). قال الجعفري:

ولكنها سَمَاعَةٌ صوتَ عانَةٍ تُحاذِرُ من ذئبٍ بِذِغنانٍ أَكَلِ^(٤)

والصورة لا تدل على أن الحمير هنا حمير وحشية، بل هي حمير أهلية، وإن كان المقصود هو صغار تلك الحمير، أي: الجحشان.

والصورة النمطية الشائعة، سواء مع الأبقار أو الحمير الوحشية، أن الذئب تفترس صغارها، ولا تقدر على مهاجمة كبارها، وعلى هذا نفهم أن عبارة الجاحظ: "الذئب... يقع على البقر والحمير"^(٥).

تعني صغار البقر والحمير، وإن كانت البقر والحمير من طعامها.

الظباء

وهي من الحيوانات التي تقع فريسة للذئب، والذئب أكثر رغبة في لحومها، غير أنه من المعروف أن الظبية سريعة العدو، ولذلك، فإن وضع المطاردة يتطلب جهداً كبيراً، لا يقوم به ذئب بمفرده، وتعتمد الذئب في حالة مطاردة الظباء والغزلان

(١) فما تسأل الأشباح: أي إنها لا تلتفت إلى شيء مما عراها من الخوف. غير انهزام: أي إنها تعدو مهزومة.

(٢) ابن حكيم، ديوان الطرماح، ص ٢٣٨. شنع: أثن قبيحات المنظر. الكتام: اللقاح.

(٣) الأصفهاني، بلاد العرب، ص ١٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٥) الجاحظ، الحيوان، ج ٢، ص ٥١.

والوعول على وضع التطويق من كافة الجهات، ثم الهجوم دفعة واحدة^(١). ولا يقدم الشعر العربي مثل هذا الوضع، حتى إن الذئب لا يطارد الغزلان^(٢) إذ طالما تحدث الشعراء عن تجمع على القتلى، والملاحظ أن الذئب العربي يصطاد فردياً، أو ثنائياً، ولا يشكل مجموعة أكبر^(٣).

ونجد أحد الرُّجَاز يصف وضع وثوب فقط في قوله:

يا رَبُّ أَبَازٍ مِنَ العُفْرِ صَدَعٌ^(٤) تَقَبَّضَ الذئبُ إِلَيْهِ فَاجْتَمَعَ^(٥)

لما رأى أن لا دَعَةً ولا شَبَعَ مال إلى أرطاةٍ حَقْفٍ فاضْطَجَعَ^(٦)

فالذئب تهيأً للانقضاض على الطيبي، إلا أنه فقد الأمل في صيده، فمال إلى شجرة أرطاة في كئيب، فأخذ إلى الراحة.

وقدم لنا أحمد غسان سبانو وصفاً جميلاً لمثل حركة ذلك الذئب، فقال:

"الذئب إذا أراد أن يفترس يقعي كالكلب ويزحف ويقترب من فريسته، ثم يقفز قفزة طويلة وينقض عليها..."^(٧).

ونجد الأعشى يحدثنا عن شعور الخوف والحذر عند الطباء من الذئاب، وذلك نتيجة لمعرفتها المسبقة بمكامن الذئاب وحالات هجومها، فهي على العكس من تلك البقرة التي تنكب على الأعشاب أكلاً، فتغفل عن عجلها، كما في معلقة ليبيد مثلاً،

(١) Bradenburg, White Wolf, pp.120, 125, Seidensticker & Susen Lumpkin, dangerous Animals

(Sydney: Weldon Owen Pty., 1995) p22 .

(٢) Harrison, Mammals of the Arabian Gulf, p. 49, Gross, Mammals of Southern Gulf, p43.

(٣) Gross, Mammals of Southern Gulf p.43.

(٤) الأبايز: الوثاب. العفر: الطيبي الذي يعلو بياضه حمرة.

(٥) تقبض: جمع قوائمه ليثب على الطيبي. الحقف: المعوج من الرمال.

(٦) ابن منظور، اللسان، "أبز".

(٧) سبانو، حيوانات وطيور بلاد الشام، ص ٣٢.

وكذلك بقرتا الأعشى والنابغة الجعدي. وعلى الرغم من أن بقرة ابن مقبل كانت حديثة عهد بالتناج مثل سواها، فقد جعل الظبية تدع ابنها أمامها، وتراقبه طيلة النهار. وذلك فرق بين طبيعة الحيوانين نفسيهما، ذكاء، ويقظة، حتى ليمثل الأعشى لنا خوفها بقوله، "قد شف جسمها الإشفاق". ومع هذا، فإن ابنها لم ينج من الذئب. وهكذا، يقول:

حُرَّةٌ طَفْلَةٌ الْأَنَامِلُ كَالدَّمِ ية لا عابِسٌ ولا مهزاقٌ^(١)
 كخذول ترعى النواصف من تش ليثَ قَفْرًا خِلا لها الْأَسْلَاقُ^(٢)
 تَنْفُضُ الْمَرْدَ وَالْكَبَاثَ بِجَمَلَا ج لَطِيفٌ فِي جَانِبِهِ انْفِرَاقُ^(٣)
 فِي أَرَاكٍ مَرْدٍ يَكَادُ إِذَا مَا ذُرَّتِ الشَّمْسُ سَاعَةً يُهْرَاقُ^(٤)
 وَهِيَ تَتَلَوُ رَخْصَ الْعِظَامِ ضَيْلًا فَاتِرَ الطَّرْفِ فِي قُوه انْسِرَاقُ^(٥)
 مَا تَعَادَى عَنْهُ النَّهَارَ وَلَا تَع جَوْه إِلَّا عَفَافَةٌ أَوْ فُوقُ^(٦)
 مُشْفَقًا قَلْبُهَا عَلَيْهِ فَمَا تَس دُوهُ قَدْ شَفَّ جِسْمُهَا الْإِشْفَاقُ^(٧)

- (١) حرة: كريمة. طفلة: ناعمة رخصة. الدمية: التمثال والصورة. مهزاق: كثيرة الضحك.
- (٢) خذول: خذلت الظبية وغيرها من الدواب تخلفت عن صحبتها وانفردت، فهي خاذل وخذول. النواصف: جمع ناصفة وهي مجرى الماء والمكان الكثير النبات الخصب. تثلث: بلد في جنوب شرق نجد. الأسلاق: جمع سلق (بفتحين) وهو القاع، والقاع الوادي المظمن الذي يستقر فيه الماء.
- (٣) المرء: ثمر الأراك الأخضر، فإذا نضج وأدرك، فهو كبات (بفتح الكاف)، الحملاج: منافخ الصائغ شبه به قرنيها. الانفراق انفساح ما بين القرنين.
- (٤) الأراك: شجر تستعمل أجزاء منه في السواك. يهراق: هراق الماء وأراقه صبه.
- (٥) تتلو: تتبع. رخص: لين. انسراق: نقص وضعف.
- (٦) تعادى تتباعد. تعجو: عجت الأم ولدها: أخرجت رضاعته عن مواعيته، وعجته أيضاً أرضعته، من الإضداد، العفافة: اجتماع اللبن في الضرع بعد ما استنزف أكثره. الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت.
- (٧) تعدوه: تتجاوزته وتتركه. شف جسمها: أنحلّه وأسقمه.

وإذا خافت السباع من الغَيِّ ل وأمست وحن منها انطلاقاً^(١)
 رَوْحَتَهُ جِيداً ذَاهِبَةً الْمَرَّ تَع لا خَبَّةٌ ولا مغلّاق^(٢)

ولا شك أننا هنا أمام ظبية، ولسنا أمام بقرة أو وعلٍ، فالوعول تسكن الجبال، والأراك ينبت في الوديان، وقد اقترنت صورة الأراك بالظباء في الشعر القديم، بالإضافة إلى ما قلناه عن اختلاف طبيعة كل من البقر والظباء، فهذه حالة ظبية وليست حالة بقرة. وطريقة تناول الأراك هذه هي طريقة تناول الظباء. ثم هم إذا شبهوا المرأة بالبقرة الوحشية، اختصوا منها عينيها، أما الظبية، فتشبههم لها للتماثل التام، خاصة عنقها. واختار الأعشى لها منطقة وديان "تثليث".

وفي مثل هذا يقول علقمة الفحل:

ثُرَاعِي خَذُولاً يَنْفُضُ الْمُرْدَ شَادِنًا تَنْوِشُ مِنَ الضَّالِّ الْقَدَافَ وَتَعْلُقُ^(٣)

وينقلنا هذا إلى افتراض ما افترضناه سابقاً في البقر الوحشي، أي: أن الغزال، كالبقرة، اختارها الشعراء كي تغفل عن ابنها، ففتترسه الذئب، أي: أن قول زهير:
 يجيّد مُغزِلَةً أَدْمَاءَ خَاذِلَةٍ مِنْ الظبَاءِ ثُرَاعِي شَادِنًا خَرَقًا^(٤)

(١) الغيل: الشجر الملتف. أمست: حل بها المساء.

(٢) الأعشى، ديوان الأعشى، ص ص ٢٥٩-٢٦١. رَوْحَتَهُ: من الرواح وهو العودة إلى المنزل في آخر النهار. جيداء: طويلة العنق. المرتع: المكان الذي ترتع فيه أي ترعى وتلعب ذاهبة المرتع، يريد أنها إذا أمست لم تبت في المرتع. خبة: تحباً درتها ولبنها. مغلّاق: من علق الرجل (كفرح) إذا ضجر وقلق.

(٣) علقمة بن عبدة الفحل، ديوان علقمة، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب (حلب: مطبعة الأصيل، ط ١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ص ١٢٧. المرّد: العَصُ من ثمر الأراك. الضال: السدر البري. تنوش: تتناول. الشادن: ولد الظباء الذي قد قوي، وطلع قرناه، واستغنى عن الرضاعة. القداف: ما أطاق الوصول إليه. تعلق: من علق بلسانه، أي تناوله.

(٤) ابن أبي سلمى، شرح شعر زهير، ص ٣٩.

أدماء: بيضاء. خرق: الصغير الضعيف.

يعني الصورة نفسها في البقرة الوحشية مع صواحبها وابنها. وهكذا يعني قول طرفة في تشبيه محبوبته خولة:

وفي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنًا مُظَاهِرُ سِمْطِي لُولُؤٍ وَزَبْرَجَدٍ^(١)

خَدُولٌ تُرَاعِي رَبِّبًا بِخَمِيلَةٍ تَنَاوِلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتُرْتَدِي^(٢)

وفي مثل هذا يقول أبو ذؤيب، يشبه محبوبته بظبية فقدت ولدها:

كَأَنَّ ابْنَةَ السَّهْمِيِّ يَوْمَ لَقِيَتْهَا مُوَسَّحَةً بِالطَّرْتِينِ هَمِيحٍ^(٣)

بِأَسْفَلِ ذَاتِ الدَّبْرِ أُفْرَدَ خَشْفُهَا فَقَدْ وَلِهَتْ يَوْمِينَ فَهِيَ خَلُوجٌ^(٤)

ولكي نقتنع مرة أخرى بأن المقصود بـ"السباع"، في قول الأعشى، الذي جرى النمط عليه عند غيره: "وإذا خافت السباع"، نستشهد بقول ابن منظور في تفسيره الذي يقول:

"الأعشى يصف ظبية وغزالها:

وتَعَادَى عَنْهُ النَّهَارَ فَمَا تَدُّ جَوْهَ إِلَّا عُنْفَاقَةً أَوْ فُوقَ

تَبَاعَدَ عَنْ وَلَدِهَا فِي الْمَرْعَى، لثلا يستدل الذئب بها على ولدها"^(٥).

وربما توقعنا أخيراً عند قول أحدهم:

(١) الأحموي: الذي في شفتيه حمرة تضرب إلى السواد.

(٢) ابن العبد، ديوان طرفة، ص ٨-٩. البرير: ثمر الأراك. الربرب: القطيع من الظباء وبقر الوحش. السمطان: السمط، الخيط من اللؤلؤ.

(٣) الهميح: الأدم من الظباء. الطرتان: طريقتان في جنبها.

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ج ١، ص ١٣٦. الخلوج: التي نزع عنها ولدها. الخشف: ولد ذات الدبر: موضع.

(٥) ابن منظور، اللسان، "عدا".

يَذُودُ بِسَحْمَاوَيْنِ لَمْ يَتَفَلَّلَا وَجَى الذئبِ عَنْ طِفْلِ مَنَاسِمُهُ مَحْلِي (١)
 فهنا خرجت الصورة على الأنماط التي رأيناها سابقاً، لنجد الظبي يهاجم
 الذئب بقرنيه الطويلين الحادّين "بسحماوين" دفاعاً عن الغزال الصغير:

يقول عروة بن أذينة:

لَهَا وَارِدٌ دَانٍ عَلَى جِيدِ ظَبِيَّةٍ بِسَائِلَةٍ مِيثَاءَ عُفْرِ ذئَابِهَا (٢)
 دَعَاهَا طَلًّا خَافَتْ عَلَيْهِ بِجَزَعِهَا كَوَاسِبَ لَحْمٍ لَا يُمَنُّ اِكْتِسَابِهَا
 إِذَا سَمِعَتْ مِنْهُ بُغَامًا تَعَطَّفَتْ وَرَاعَ إِلَيْهَا لُبُّهَا وَانْسِلَابِهَا (٣)
 ثم يقول:

وَمِنْ فَوْرٍ يَوْمٍ نَاجِمٍ مَتَضَرِّمٍ بِأَجْوَاذِ مَوْمَاةٍ تَعَاوَى ذئَابِهَا (٤)
 ويقول الصمة بن عبدالله القشيري:

وَلَا أُمَّ أَحْوَى شَادِنٍ عَطَفَتْ لَهُ قَبِيلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَوْ حِينَ ذَرَّتْ (٥)
 فَلَمَّا سَقَّتْهُ الدَّارَ أَحْجَمَ قَائِمًا إِلَيْهَا قَلِيلًا ثُمَّ وَلَّى وَوَلَّتْ
 إِلَى مَرْتَعٍ قَدْ عَوَّدَتْهُ وَمَهْمَلٍ (سَلِيلٍ) فَظَلَّتْ يَوْمَهَا حِينَ ظَلَّتْ (٦)

(١) ابن منظور، اللسان، "سحم"، "وحي". الزبيدي، التاج، "نسم". السحماوان : القرنان. وحي :

صوت. الطفل: الظبي الرخص. المناسم : للإبل، فاستعاره للظبي. محل : أصاب خلاء.

(٢) جيد: عنق. ميثاء: أرض سهلة ممتدة. وفي المتن "ميساء" تصحيف. عفر: مغبرة.

(٣) تعطفت : أشفقت. لها: عقلها. انسلابها: إسراعها.

(٤) ابن أذينة، شعر عروة بن أذينة، ص ٢٦٢-٢٦٣، ٢٧٤. الفور: الجيشان وشدة الحر. ناجم: ظاهر

وطالع. متضرم: ملتهب شديد الحر. أجواز : جمع جوز وهو وسط كل شيء. الموماة: المغازة.

(٥) الشادن: ولد الظبية. ذرت : طلعت.

(٦) سليل: مصحفة صوابها ظليل.

فلما دنا الإظلام أدرك سمعها صوتاً خفياً راعها فاحزألت
 تمارت على جرس فنصت بجيدها وكانت على طول الحلاء أدلت^(١)
 ودارت بأدنى عهده ثم راجعت (أماقي) ثكلى ما تجد ما أضلت^(٢)
 وقال مسلم بن عسكر اللبين:

فما مُغزِلٌ أدماء جَمُّ جُفُونُهَا تَتَّبِعُ مَوْلِيَا (بعد بان) جائع
 أُتِيحَ لِمُعَبَّرٍ (المقاط) مُنْصَبٍ أَمِينِ الْقَوَى هَيَّامٍ بعض الرئاع^(٣)

وإذا كانت الذئب تحتل العجل الصغير أول النهار، وهو مكشوف غالباً، فإن
 الظباء التي لا تدع صغارها منفردة "ما تعادى عنه النهار"، وهو أبداً تحت مرأى منها
 ومسمع "تراعي شادناً خرقاً"، تكته مساءً وسط الأشجار الملتفة، قبل حلول الظلام،
 فيغتتم الذئب هذه الفرصة التي تتوافق مع ميعاد خروجه الطبيعي، ليفترس الصغير:
 "فلما دنا الإظلام"، مع ملاحظة أن مرعى الظبية كان قريباً من كناس صغيرها.

وهذه هي الصورة النمطية في علاقة الذئب بالظباء، غير أنه من الممكن أن
 يحاول الذئب اصطياد الغزال عن طريق المراوغة والتخفي، كما قالوا:
 "الذئب يادو للغزال"^(٤).

لقد لاحظ ابن منظور سابقاً:

"ظبية.. تباعد عن ولدها في المرعى، لئلا يستدل الذئب بها على ولدها".

(١) تمارت: شكّت. الجرس: الصوت.

(٢) الفيصل، شعراء بني قشير، ج ٢، ص ٧٧-٧٨. (أماقي) مصحفة، صوابها "ماقي".

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

(المقاط): يبدو أنه مصحف، وصوابه، فيما يتعلق بالذئب: "الملاط": يعني عضديه.

أما "بعديان"، فتصحيف. وهكذا، "جائع".

(٤) العسكري، جمهرة الأمثال، ج ١، ص ٤٦٤. يادو للغزال: يختله ليأكله.

وهذه حالة غرزية عبّر عنها ذو الرمة أبلغ تعبير في قوله:
 إذا استودعته صفصفاً أو صريمة تَنَحَّتْ وَنَصَّتْ جيدها للمناظر^(١)
 فالظبية ابتعدت قليلاً تمويهاً عن الذئب، إلا أن عينيها وكامل جوارحها موجهة
 نحو موضع اختبائه، تنظر إليه خلسة، مخافة أن يسطو عليه الذئب.

الحيوانات المفترسة

الثعالب

إن عداوة الذئب للثعالب معروفة، إذ إن الذئب يرى الثعلب، حتى يلحق به
 ليقتله، فيأكله. ولقد قالت العرب:
 "أجن من هجرس"
 أي: ولد الثعلب...؛ لأنه لا ينام إلا وفي يده حجر، مخافة الذئب أن يأكله^(٢).
 وهذا التصرف هو كناية عن تلك العداوة بينهما.
 وقالوا كذلك: "الثعلب (بصل الفار)، فيلقيه في جحره،
 لئلا يقربه الذئب؛ لأن الذئب يخافه"^(٣).
 وهذا يعني أن الذئب يترصد الثعلب في جحره، ويكمن له عنده، والثعلب
 يلجأ إلى حيلته ودهائه، فيجلب إلى جحره ما يخيف به الذئب، ويبعده عنه.

الضباع

هل حقيقة ما يرويه التراث العربي من أن الذئبة تتولى إرضاع جراء الضبع؟

(١) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ج ٣، ص ١٦٧٢-١٦٧٥.

(٢) الزبيدي، التاج، "هجرس".

(٣) كشاجم، المصايد والمطارذ، ص ١٤٩. وصوابه ما جاء في الحشاء، المنصوري، البيزرة، ص ١٥٧:
 الثعلب... يجيء ببصل الفأر. بصل الفأر: البصل البري، أو بصل البر، ورق مثل الكراث، يظهر
 متبسطاً، وله في الأرض بصلة عريضة.

إن هذا الاعتقاد يعني أن الذئبة حمقاء. حقاً، وُصفت في التراث بالحماقة، ولكن ذلك لا يتفق مع الذكاء الشديد المعروف في الذئب. وفي ذلك الاعتقاد يقولون:

"إن الضبع إذا صيدت، عال الذئب ولدها، وأتاها باللحم. وذلك أنه يشب على الضبع، فتحمل منه، وتلد له"^(١).

وابن جذل الطعان يقول: إن الذئبة تقوم بإعالة أبناء الضبع، مهملة أبناءها:

كمرضعةٍ أولادَ أخرى وضئعتَ بِنِيها فلم تُرَقِعْ بِذَلِكَ مَرَقَعَا^(٢)
والكميت بن زيد لا يذكر الذئبة، وإنما الذئب، وهذا أشد تناقضاً، يقول:

كما خامرت في حَضْنِها أُمُّ عامرٍ لذي الحَبْلِ حَتَّى عَالَ أَوْسٌ عِيالَها^(٣)
وعلى هذا النحو قال الآخر، موضحاً أن الذئب يظن أن بنات الضباع بناته:

والذئبُ يَغْذُو بناتِ الذَّيخِ نَافِلَةً بِلِ يَحْسَبُ الذَّئْبُ أَنَّ النَّجْلَ لِلذَّيْبِ^(٤)
وإن خُصَّ بهذا الفعل الذئبة: "جهيزة"^(٥).

(١) ابن قتيبة، المعاني الكبير، ج ١، ص ٢١٣.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ج ١، ص ١٩٧.

(٣) الأسدي، شعر الكميت بن زيد، ج ٢، ص ٨٠.

(٤) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ٣٩٨. النجل: النسبة.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج ٩، ص ٢٧٣.

ثم قالوا: "وكذلك من عاداتها أن تُلجِم الضبع إلى أن تفرغ من تربيته"^(١).
وإزاء تلك الأقوال حول إعالة الذئب لجراء الضباع، يتساءل المرء، لماذا هذا التركيز على هذه الإعالة؟

إن العلم يؤكد أن الضباع لا تكترث كثيراً بجرائها في جحورها، ولا سيما بعد فترة وجيزة جداً من فترة الحضانة، وربما وجد جحر فيه جراء من غير رعاية^(٢). وقد أثبتت الدراسات الميدانية أن العسبار Aardwolf: (نوع من الضباع)، هو الذي لوحظ قيامه بإعالة الجراء بشكل منتظم، وذلك خشية تعرضها لابن أوى Black - Backed Jackal، الذي يفترسها^(٣).
ومن الغريب أن الضباع تحاول افتراس جراء العسبار^(٤).

(١) الأصبهاني، الدرّة الفاخرة، ج ١، ص ٨٢.

أم عامر: الضبع. أوس: الذئب. الذئخ: ذكر الضبع.

وقد صَحَّف ابن فضل الله العمري، في كتابه، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ص ٥٥، حين قال عن الذئبة:

"وربما تدع أولادها، وتذهب، فترضع ولد الضبع، ولهذا، تقول العرب: فلان أحقق من جهير، وهي أنثى الدب".

فالقول الشائع هو عن علاقة الذئبة بالضبع، وليس "الدبة"، و"جهيزة"، اسم من أسماء الذئبة، وليست "جهير". وحدث مثل هذا التصحيف عند الأثناندي، معاني الشعر، ص ٢٠، الذي ذكر الديسم: زعموا أنه ولد (الدب). ذلك أن الدب لا يعيش في جزيرة العرب. انظر، خالد بكر كمال، حديقة الحيوان (المدينة المنورة: دار الزمان، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٠م) ص ١١٤. ومن المؤكد أن كل ما يتعلق بعلاقة الأسد بـ(الدب) في كلام العرب هو في الذئب، وليس (الدب). انظر، كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) ج ١، ص ٣٢٦.

(٢) Milles, Kalahari Hyaenes, p. 221.

(٣) Ibid, p. 222.

(٤) Ibid, p. 91.

وفي تصحيح لهذا الاعتقاد الخاطئ يقول ابن منظور، في تعليق له على بيت الكميث: "أوس: يعني أكل جراءها"^(١).

كما جاء تعليق له آخر عليه، فقال:

"أي: بقي جرائها، لا كاسب لهن ولا مُطعم، فهن يتبعن ما بقي للذئب وغيره من السباع، فيأكلنه. والحبل على هذه الرواية: حبل الرمل لذي الحبل: الذئب غلب جراءها، فأكلهن، (فعال) على هذا: غلب"^(٢).

ويذكر إدوار غالب أكل الذئب جراءه فيقول: "إن الذكر إن جاع لا يتردد في افتراس أولاده، فالأنثى لا تترك صغارها قبل مرور أربعة أشهر، وإذا قضت حاجة القوت بالتغيب، فلا تسرح بمفردها، بل تذهب برفقة الذكر"^(٣).

ويعزو الكتاني هذه الظاهرة - وهي ظاهرة صحيحة في الأسابيع الأولى من الولادة، حيث لا تترك الأم أولادها آنذاك - إلى الذئب المعروف بالكويوت Coyote القَيُوط/الخَيُوط: وهو كلب الحُبث، أو كلب البرية، أو الذئب العادي^(٤).

ولا تشير المراجع العلمية إلى وجود ذلك النوع في المنطقة العربية، وإنما تعدّه من حيوانات شمال أمريكا الشمالية وبعض أجزائها الوسطى، من جنوب كندا حتى

(١) ابن منظور، اللسان، "حبل".

(٢) المصدر السابق.

(٣) إدوار غالب، حيوانات لبنان البرية والمائية، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٧٠م) ج ١، ص ٢٩.

(٤) مصطفى سعيد الكتاني، أسس بيولوجيا وإدارة الحيوانات البرية، (الموصل: مطابع جامعة الموصل،

١٩٨٠م) ج ١، ص ٣١٦. Marc Bekoff, Coyotes (London: Academic press, 1978) p.99.

H. Hartley & T. Jackson, The Clever Coyoteo وانظر أيضاً

(London: Univ. of Nebraska Press, 1931). Annie p. Gray, Mammalian Hybrids (Edinburgh: R. &

Clare ltd., 1971) pp. 45, 49. William Henry Burt & Richard p. Grossenheider, A. Field Guide to

the Mammals (Boston: Houghton Hifflin Co., 3rd, 1976) pp.69-70.

أواسط المكسيك. ووجوده يمتد على طول المحيط الهادي حتى شمال كندا وأمريكا، وهو من الحيوانات التي تستوطن الصحارى والجبال. واللافت للنظر أنهم يسمونه: The Prairie Wolf، أي: ذئب البرية، وربما دلت التسمية العربية على وجود ثمة تشابه بينه وبين نوع من أنواع الحيوانات المفترسة المماثلة للذئب العربي، والتي ربما وجدت ذات يوم في جزيرة العرب.

إلا أنه من المؤكد علمياً أن الضباع الذكور تأكل أبناءها الضباع الصغيرة، إذا ما خلت بها^(١).

حتى إن ابن مهراس يقول:

كَأَنَّ نَدَاءَهُنَّ قُشَاعَ ضَبْعٍ تَفْقَدُ مِنْ فِرَاعِلِهِ أَكْيَالاً^(٢)

تقول العرب:

"أبر من الذئب بولده:

وذلك أن الذئبة إذا وضعت، لم تبعد عن أولادها إلا مقداراً لا تغيب فيه عن عينها، فهي تلازم أولادها حتى تكمل تربيتها، وكذلك من عاداتها أن تُلحم الضبع إلى أن تفرغ من تربيتها"^(٣).

وكان في هذا القول إشعاراً بخوف الذئبة على جرائها من أبيها الذئب الذي يتحين الفرصة لأكلها في أثناء غياب أمهاتها، وهذا غير صحيح، فالذئاب لا تأكل صغارها^(٤)، إذ يتعاون الاثنان على تغذية الصغار، بل يقوم الذئب أحياناً بذلك نيابة عن الأم^(٥).

(١) Cynthia Moss, Portraits in the Wild (London: Harnish Hamilton, 1971) pp. 306-307.

(٢) ابن منظور، اللسان، "فرع". قشاع: صوت الضبع الأم.

(٣) الأصبهاني، الدرّة الفاخرة، ج ١، ص ٨١-٨٢.

(٤) Hall, & Sharp, Wolf & Man, p34.

(٥) انظر، Mech, The Way of the Wolf, pp.97-101.

ومن المعلومات التي كررها العرب حول علاقة الذئب بالضباع قولهم باجتماعها على القتلى، وفي ذلك يقول أبو حنشل، عصم بن نعمان التغلبي في قتلهم بني المرار:

أصبحوا بالكُلاب تعتفر الضَّبَّ عٌ عليهم وعَاوياتُ الذئاب^(١)

ويقول بشر بن أبي خازم:

وهم تركوا غداة بني نُمير شُرَيْحاً بين ضيعانٍ وذيب^(٢)

أما تَابُطُ شُرّاً، فيقول:

تَضْحَكُ الضبع لقتلى هذيل وتَرى الذئبَ لها يَسْتَهْل^(٣)

وفي شرح البيت يقول ابن منظور:

"ذلك أن الذئب ينازعها القتيل، فتكشر في وجهه وعيداً، فيتركها مع لحم القتيل، ويمر"^(٤).

وقد مرّ بنا تفسير ذلك، وإيضاح معانيه من ناحيتين، الأولى: فرح المجموعتين بسقوط القتلى، والثانية: أن الضباع تُبعد الذئب عن القتلى بما تبعثه من روائح متنتة، وما تثيره من شعرها، وتكشيرها:

ويقول الفرزدق:

كفاه التَّبَلُ تَبَلُ بني تميم وأَجْزَرُه الثعالِبُ والذئاب^(٥)

(١) عادل جاسم البياتي، كتاب أيام العرب قبل الإسلام، دراسة مقارنة لملاحم الأيام العربية (بغداد: مطبعة دار الجاحظ، ١٩٧٦م) ص ٤١٣. Hallf & Mowat, Never Cry Wolf..., pp. 145-147, 164.

Sharp, Wolf and Man, p. 34.

(٢) ابن أبي خازم، ديوان بشر، ص ٢٢.

(٣) تَابُطُ شُرّاً، ديوان تَابُطُ شُرّاً، ص ٢٥٠.

(٤) ابن منظور، اللسان، "ضحك".

(٥) الفرزدق، ديوان الفرزدق، ج ١، ص ١٠٥، التبل: الحقد والعداوة. أجزره: جعله كالجزور مأكلاً

للثعالِب والذئاب. Hall, & Sharp, Wolf and Man, p34.

وليس بمستبعد تعرّض الذئب للقتلى أو الجرحى، ليس بمستبعد، إذا افترض المرء أن الجوع المميت قد يدفع بالذئب إلى استساغة اللحم البشري، مع أن العلم لم يثبت حتى الآن أن اللحم البشري هو من وجبات الذئاب، إلا أن يكون ذلك اضطراراً، أو بتأثير مرض السُّعار (الكَلْب)، بل إن العرب أنفسهم نفوا عن الذئب تناول اللحم البشري، يقول الشريف المرتضى في أماليه:

"الذئب من بين السباع لا يرغب في القتلى، ولا يكاد يأكل إلا ما افترسه"^(١).
ويقول عوف القوافي:

لولا سِوَاهُ لَجَرَّرْتُ أَوْصَالَهُ عُرْجُ الضَّبَاعِ وَصَدَّ عَنْهُ الذِّيبُ

أي: لولاه، لتركه جيفة تجره الضباع، ولا يقربه الذئب؛ لأنه لا يأكل الميتة^(٢).
وتبين المعلومات المستمدة من الدراسات الحديثة أن الضباع والذئاب قد تجتمع حول القمامة^(٣).

ولكن هناك معلومات تفيد أن الذئاب، بل حتى الذئاب الكلبية^(٤)، تهاجم الضباع لتفترسها، والضباع تفعل الشيء نفسه إذا تفردت بذئب ضعيف^(٥).
ويمكن تلخيص هذه الحالات في ملاحظة ميلز، الذي يقول، وهو يتحدث عن ابن آوى، وهو نوع من الذئاب:

"تنجح الضباع في اختطاف ماتصطاده بنات آوى (الشاكال)، وهي تقتفي آثارها من أجل ذلك. ولكن بنات آوى تعتمد إلى استخلاص اللحم قبل وصولها إليه، وهما قد يشتركان حول فريسة واحدة، كما أن بنات آوى تأكل ما تساقط من لحم عقب الضباع.

(١) المرتضى، الأمالي، ج ٢، ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) العسكري، الجمهرة، ج ١، ص ٤٦١.

(٣) Harrington & Paguet, Wolves of the world, p.189. لعل الذئب هنا هو ابن آوى.

(٤) Scott, Painted wolves, pp 39, 214.

(٥) Harrison & Bates The Mammals of Arabia p.155. لعل الذئب هنا هو: ابن آوى.

ولكن كثيراً ما تظهر فجأة للضبباع حول فرائسها، وتنتظر حتى تغادرها، وقد تحاول مضايقة الضبباع أو التحرش بسيقانها، حتى تبتعد الضبباع ببعض فريستها، فتتنقض على بقية الطعام. إن العلاقة بين الضبباع وبنات آوى علاقة منافسة لشح الطعام^(١).

والملاحظ أن الذئب تفسح الطريق للضبباع إذا كانت أكبر منها، أما إذا كانت الذئب أكثر عدداً، فهي التي تطرد الضبع منفردة^(٢) مع حدوث معارك بين الذئب والضبباع^(٣). ثم إن الضبباع تلجأ إلى استنفارها شعرها، وظهورها بمظهر البشع للقاء، فتصرف الذئب عنها^(٤).

ولعل حالات المنافسة هذه هي التي دعت العرب إلى أن تقول:

"إذا اجتمع الذئب والضبع في الغنم، سلمت الغنم. قال حمزة: حدثني أبويكر بن شقير، قال: حَضَرَت المبرد، وقد سئل عن قول الشاعر:

وكان لها جارٍ لا يخفِئانها أبو جَعْدَةَ العادي وعرفاء جِيال

فقال: أبو جعدة، الذئب، وعرفاء، الضبع، فيقول: إذا اجتمعا في غنم، منع كل واحد منهما صاحبه. وقال سيويه في قولهم: اللهم ضبعا وذئبا، أي: اجمعهما في الغنم"^(٥).

وقال جرير:

يأوي إليك فلا مَنْ ولا جَحَدٌ من ساقه الضَّبْعُ الحِصَاءُ والذئب^(٦)

(١) Milles, Kalahari Hyaenas, pp. 58, 120.

(٢) Hamington & Paguet, Wolves of the World, p. 189.

(٣) Harrison, & Bates, The Mammals of Arabia, p.155

(٤) Gross, Mammals of Southern Gulf, p. 39.

(٥) الميداني، مجمع الأمثال، ص ٨٤. يخفِئان: يتقضان عهدهما ويغدران.

(٦) أبو علي، أحمد بن محمد الحسن المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، د. ت) ج ٢، ص ٣١٨. وانظر، ابن منظور، اللسان، "حصص". الضبع الحصاء: التي لاخير فيها. السنة المجذبة، وهو المعنى المجازي، أما المعنى الحقيقي، فهو اجتماع النوعين.

وربما دعانا هذا إلى افتراض أن الزعم بأن الذئاب تجتمع على القتلى، هو خلط بين الضباع والذئاب، إذ كثيراً ما خلطوا بينهما، كما لاحظنا، بحيث عدوها ذئاباً لا ضباعاً، أو هو ابن آوى.

ومن طريف ما يحكون هذا الاختلاف في طبيعة الذئاب عن الضباع، مما يجعل الجمع بينهما جَدَّ صعب، أنهم يقولون في مثلهم:

"إنما أنت خلاف الضبع الراكب:

ذلك أن الضبع إذا رأت ركباً، خالفته، وأخذت في ناحية أخرى هرباً منه، والذئب يعارضه مضادة للضبع"^(١).

ومما هو لافت للنظر في علاقة الذئاب بالضباع ما أشار إليه جريبة بن الأشيم الفقعسي من نبش الذئاب قبور الموتى، في قوله:

فلا يَأْكُلْتِي الذئبُ فيما دَفَنْتَنِي ولا فُرْعُلٌ مثلُ الصَّرِيمَةِ خارب^(٢)

ذلك أن المعروف أن الذئب لا يأكل الجيف إلا في أوقات المجاعات، عند ما يضطر إلى ذلك اضطراراً، فكيف ينش القبر، ليستخرج جثة منتنة؟ وربما كان قول جريبة صحيحاً، إذا كان الدفن حديثاً، وكان الذي استخرج الجثة هو الضبع (فرعل)، فشاركها فيها الذئب، تحت اضطرار الجوع الشديد، إن لم يكن المقصود بالذئب، ذلك الضبع البني المشار إليه، أو هو ابن آوى، ذلك أن الضبع هي المعروفة بنش القبور^(٣).

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٢٦.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ج ٦، ص ٤٥٣. الفرعل: ولد الضبع. الخارب: اللص.

(٣) انظر، Gross, Mammals of the Southern Gulf, p. 40.